فيصل دراج

الفلسطيني بين الواقع والوهم الروائي
"في روايـة جبرا ابراهيم جبرا"

والأرض تبدأ من نسيج الجرح ـ اشبهها
وامشي فوق راس الرمح ـ تشبهني
وامشي في لهيب القمح .

محمود درويش

اللاجئون مثل شارع طويل . طوله عشرون سنة ....
ولكن هل تعرفون من الذي يمشي فوق هذا الطريق ؟ .

غسان كنفاني

يقول جبرا ابراهيم جبرا في روايته « السفينة » : « من عادة كافكا في مذكراته ان يصف تجربة ما ، ثم يعود فيصفها على نحو آخر ، ثم يكرر الوصف على نحو ثالث ، ويستمر في ذلك أحيانا لأربع او خمس مرات . لعله يحاول كل مرة أن يوجد لتجربته الوصف الأفضل . الذي يعتقد انه لن يحققه بمحاولة واحدة ، فيكررها . ولكنه يبدأ كل مرة على نحو جديد ، وما يسهبه من تفصيل في المحاولة الواحدة يوجزه في المحاولة الأخرى مسهبا في ناحية أخرى ، وهكذا . وبذلك تصبح المحاولة الواحدة لا تغني عن الأخريات ، بل تكملها . ص : ٢١٨ » .

يقتفي جبرا في تجربته الروائية اثار كافكا ، ويستعيد في رواياته ـ مذكراته موضوعة واحدة وشخصية واحدة ويطلقهما في فضاء روائي تتجدد مياهه باستمرار . يتجدد الوصف والمقاربة ويبقى « الاصل » واحدا . يغتني الأصل فنيا دون ان يبارح مهده ومقامه الخاص . وفي هذه الاستعادة المتجددة تكمن قيمة جبرا ابراهيم جبرا الفنية وتكمن أيضا مأساته وحدوده . فعندما يستعيد « الأصل » يمارس فنه الروائي ويجدده ويدفع حدوده الفكرية والفنية الى آفاقها الممكنة ، وعندما يستعيد « الأصل » يعبر عن ثبات البداية لديه وغربته عن التطور الحقيقي لمسار الشعب الفلسطيني . تمكث مأساة جبرا وأوهامه في شكل البداية الثابتة التي تدور حول نفسها و « تنسى » حركة المجتمع والتاريخ ، وبداية جبرا ونهايته هي « الأنا المطلقة » التي لا تعرف إلا نفسها وهما ، وفي معرفتها الواهمة تقارب المسار الفلسطيني فتضل الطريق رغم عشقها للوطن ومجاهدتها للحديث به .

يدخلنا جبرا في تجربته الروائية الأصيلة الى عالم المتعة الجمالية ، ثم يجنح به الخيال فيحاول أن يعيدنا الى أرض الوطن ، فينجح في محاولته الأولى ويسقط في محاولته الثانية . يسقط وينجح وتبقى المتعة الجمالية عاجزة عن إنكار أيديولوجيتها ، وفي اللحظة الأخيرة وفي